ومن اراد ان يقف على صحة كثير من هذه المسائل التي شوّهها السيد اورمانيان فعليه بكتاب وضعناهُ نحن ايضاً موخرًا في تاريخ ارمينية السياسي والديني حيث سعينا جهدنا في درس آثار الارمن القديمة والتمييز بين صحيحها وسقيمها وغثها وسمينها منذ اوّلها الى اواخر القرن الرابع (١ ومع ما نعلم من تقصيرنا في امور كثيرة لم نلقَ حتى الآن في ما كتبهُ عنهُ العلماء في المجلّات الّا التنشيط والثناء مع ملحوظات عرضيّة كنّا سبقنا واشرنا اليها في مقدّمتنا. فان شاء الله نتابع هذه الابحاث ونتمنّى ان يجارينا في البحث كل محبي التاريخ الارمني. والسلام

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الباب الثالث

النصرانيّة بين عرب النور والسلط وابنتها

انّ نهر الاردن المعروف بالشريعة بعد خروجهِ من اغوار حرمون في جهات بانياس وجريهِ جنوباً فتكوّن منهُ بحيرة الحولة يصب في بحر الجليل ثمّ يخترقهُ فيسيل متحدرًا الى الاعماق بين ضفّتين ترتفعان شرقاً وغرباً حتى يبلغ تحدُّرهُ نحو ٣٠٠ متر تحت سطح بحر الشام وينتهي الى بحر لوط فتلك الناحية التي يقطعها الاردن تدعى بالغور. وليست تلك الجهة مسيلًا للنهر فقط بل تتّسع ضفافها وترتفع بالتدريج في سعةٍ يقدّر معدّلها نحو ١٠ كيلومترات فيها البقع المخصبة والنواحي العامرة والعيون المتدفّقة

وان لحظت عبر الاردن. وجدت وراء ضفافهِ شرقاً بلاداً واسعة تتلوها الجبال الشاهقة كجبل عجلون وجبل جلعاد وجبل نبو الى جبال مؤاب بينها الشارف

(١ هذا اسم الكتاب:

HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMÉNIE par François Tournebize, depuis les origines des Arméniens jusqu'à la mort de leur dernier roi (1393), *Paris, A. Picard*, 1911 in-8°, 872,

الفسيحة والاودية الكثيرة الخيرات والمناجع الطيبة كالسلط والبلقاء وصحاري مؤاب تتَّصل شمالًا ببادية الشام وجنوبًا بنواحي كَرَك وجهات النبط وشبه جزيرة سينا فهناك سكنت شعوب كبيرة كالعمونيين والموآبيين والمديانيين. وكانت قبائل العرب البادية والحاضرة ممتزجة معها تتنقَّل في جهاتها من اريافها الى صرودها طلبًا للمراعي او تسكن في المدر فتعنى بالفلاحة

فالنصرانيَّة وجدت لها في تلك الاقطار كلِّها بين اهلها المطبوعين على شظف العيش وسذاجة الاخلاق ومجانبة الترفُّه والبذخ تربةً صالحةً ما كاد يقع في ظهرانيها الزرع الجيِّد حتى نما اي نموّ. وكان حلول المسيحيين الاوَّلين في تلك الجهات قليلًا بعد صعود الربّ ولاسيما لمَّا ثار الاضطهاد الاوَّل على تلاميذ الرسل (اعمال ٨ : ١) ولمَّا جاء الرومان لمحاصرة اورشليم اذ خرجوا الى عبر الاردن بوحي من الربّ فاستوطنوا انحاءه كما اخبر ارسابيوس. ولا شكَّ انهُ نال العرب قسمٌ من تلك النعم الروحيَّة التي افاضها الله على سكَّان تلك الاصقاع فدانوا بدينهم

ومن الادلة التي تناقلها بالتقليد فدوَّنها المؤرخون تنصُّر الضجاعمة الذين سبقوا الغسَّانيين في ملك البلقاء. وقد حفظوا لنا اسم احد امرائهم فدعوهُ دؤاد بن الجولة المعروف باللثق وجعلوا مقامهُ في مادبا (اطلب تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٥٣) وذلك في اواخر القرن الثاني للمسيح (١)

ولمَّا انتهى طور الاضطهادات على المسيحيين في القرن الرابع قسمت تلك النواحي ايالتين مدنيَّتين فدعيت الواحدة بفلسطين الثانية كانت حاضرتها مدينة باسان والاخرى فلسطين الثالثة كانت حاضرتها مدينة پترا او سلع. وقد بلغ عدد الكراسي فيها قبل الاسلام نيفًا واربعين كرسيًّا يُعرف اسماء كثيرين من اصحابها الذين دبَّروها ورعوا مؤمنيها فتاهيك بذلك شاهدًا صادقًا على امتداد الدين المسيحي في العرب

وكان اكثر الدُّعاة عملًا في نشر النصرانيَّة نسَّاكها وسيَّاحها الذين كانوا اتَّخذوا لهم مآوي ومحابس يسكنونها معتزلين عن الناس ليعيشوا فيها عيشة الملائكة بالزهد

---

(١) قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق (طبعة ليبسيك ص ٣١٩) : والضجاعم كانوا ملوكًا بالشام قبل غسَّان ومنهم داود اللثق الذي يضاف اليهِ دير داود بالشام وقد ملك زمانًا (والضجاعم هم بنو ضجعم بن سعد بن سليح بن عمران بن الحاف بن قضاعة)

وضروب المناسك الرهبانيَّة فكان مثلهم يعمل في قلوب العرب خصوصاً ويجتذبهم الى دين اولئك الابرار فيطلبون منهم نعمة المعموديَّة

ومما اخبر به القديس هيرونيموس في ترجمة القديس هيلاريون انَّ هذا السائح الجليل الذي تنسَّك في جهات غزَّة سار الى مدينة الخلصة (Elusa) في البريَّة جنوبي بحر لوط ليعود احد تلامذته وكان اهلها يدينون بالوثنيَّة ويكرمون الزهرة على شكل حجرة فوافق وصوله اليها يوم عيد الزهرة فلما بلغهم قدوم القديس خرجوا لاستقباله واكرموه اكراماً جزيلاً مع نسائهم واولادهم وكانوا يطلبون بركتهُ وكان قوم منهم تألوا بدعائهِ الشفاء من امراضهم فجعلوا يتوسَّلون اليه بان يقيم بينهم فوعدهم بان يفعل اذا نبذوا عبادة الحجارة وآمنوا بالسيِّد المسيح . فاجابوا الى طلبتهِ ولم يدعهُ يخرج من بلدتهم حتى اختطَّ لهم حدود كنيسة يقيمونها وكان ممَّن تنصَّروا على يد القديس كاهنهم وسادن اصنامهم . ومذ ذاك الوقت وردت عدَّة آثار عن نصرانية في الخلصاء ولما لساقتها منهم واحد يسمى عبد الله وسنذكر اعمالاً أخرى لهيلاريون

وممن دخلت النصرانيَّة بينهم في تلك الانحاء امَّة النبيط او النبط فهؤلاء كانوا ايضاً من العرب فأنشأوا دولة عظيمة ومصَّروا لهم الامصار واتَّخذوا لهم مدينة عظيمة يدعونها بترا او سلع لا تزال آثارها الفخيمة تدهش كلَّ من يقصدها . وقد مرَّ لحضرة الاب جلابوت (المشرق ٨ : ٩٦٥—٩٧٣) وصف بعض ابنيتها العاديَّة . وكان ظهور النبط نحو القرن الخامس قبل المسيح وما لبثوا ان اشتدَّ ساعدهم واستفحل امرهم وصار ملوكهم شهيرة واسمة واستقلُّوا بالملك في القرن الثاني قبل المسيح وكان اوَّلهم « الحارث الاوَّل » ودام ملكهم الى العشر الاوَّل من القرن الثاني بعد المسيح حيث تغلَّب الرومان على بلادهم وكان آخر ملوكهم مالك او مليكوس الثاني (١٠٣ — ١٠٧) واصبحت بلاد النبط اقليماً رومانياً يتولَّاه احد حكَّام رومية

وكانت بترا معبرًا لكلِّ القوافل القادمة من مصر الى دمشق ومن جزيرة العرب الى فلسطين ومن العراق الى مصر ولذلك ازدادت ثروتها واشتهر اهلها بالمتاجرة . وبلغتها النصرانيَّة قبل غيرها من مدن النبط وترى استيريوس اسقفها يلعب دورًا مهمًّا في عهد قسطنطين لمعاكسة البدعة الاريانيَّة . ثم انتشرت النصرانية في بقية النبط

١) اطلب اعمال الآباء اللاتين Migne P. L., XXIII. col. 42

وتأصلت فيهم وثبتوا عليها حتى بعد ظهور الاسلام بمدة حتى انَّ بعض الكتبة يدعون نصارى العرب نبطاً . ولك مثال على ذلك في بعض مقامات بديع الزمان في المقامة القزوينية حيث جعل نصَّابهُ ابا الفتح الاسكندريّ نبطيًّا فيقول متظاهرًا بالاسلام :

ان الكُ امتُ فكم لبلةٍ جحدتُ فيها وعبدتُ الصليبْ

وكذلك ضرب شعراء العرب المثل برهبان مدين وزهدهم . قال كثير عزَّة :

رهبانُ مدينَ والذين عهدتُم يبكون من حذر العقاب قعودا

وكانت نواحي الغور على ضفَّتي نهر الاردن اديرة عديدة يُعرَف منها نحو العشرين قد اكتشف بعضها حضرة رئيس مدرسة الصلاحيَّة الفضال الاب ي . ل . فدرلين (R . P . J . L . Féderlin) ووصف اخربتها وصفاً مدقَّقاً في مقالاته الفريدة التي نشرها في مجلَّة الارض المقدَّسة (١ في السنين ١٩٠٢ و ١٩٠٣ و ١٩٠٧ ولا شكَّ انَّ رهبان تلك الاديرة اجتذبوا الى الدين المسيحيّ من كان يجاورهم من عرب الحضر . بل لدينا دلائل على ترهب بعض اولئك العرب المتنصِّرين في هذه الاديرة اشهرهم القديس ايليا البطريرك الاورشليميّ فهذا كان عربيّ الاصل رحل من بلده الى دير نطرون في مصر وبعد ان ارتاض في الآداب الرهبانيَّة سكن مدَّة في دير ساباس على ضفَّة الاردن اليُمنى ثم رُقّي الى رتبة البطريركيَّة فدافع عن الايمان بغيرة شديدة حتى فضَّل النفي على موافقة المبتدعين ومات في أيلة سنة ٥١٣

ومن يستحقّ ذكرًا خصوصياً في تبشير العرب ودعوتهم الى النصرانيَّة القديس العظيم افتيميوس كوكب بريَّة الاردن وجهات الغور فانَّ الله اصطفاهُ في اواسط القرن الخامس ليثير عددًا عديدًا من العرب ويهديهم الى سبيل الايمان فانَّ المؤرخ الشهير والراهب معاصره كيرلُّس من سيتوبوليس (Scythopolis) او بيسان روى في ترجمته تفاصيل ذلك الخبر الذي رواهُ حضرة الاب پيترس من جماعة البولنديين (في المشرق ١٢ : ٣٤٤—٣٥٣) نقلاً عن نسخة عربيَّة قديمة في مكتبتنا الشرقيَّة وخلاصتهُ انَّ احد الوثنيين يونانيّ الاصل المدعوّ اسپاباط ولعلَّهُ اصبهبذ

(١ اطلب La Terre Sainte : Recherches sur les Laures et Monastères de la plaine du Jourdain et du désert de Jérusalem راجع ايضاً ما كتبهُ بلّديوس الاسقف في تاريخهِ (المشرق ١٠ : ١٧٧) وبيوحنَّا موسكوس في المرج الروحي

١ كنيسة بُصرى في حوران
(رسم العلّامة دي ڤوكويه)

٢ رسم الكنيسة المذكورة وهندستها

٣ قطع ضئ كنيسة اذرح في حوران

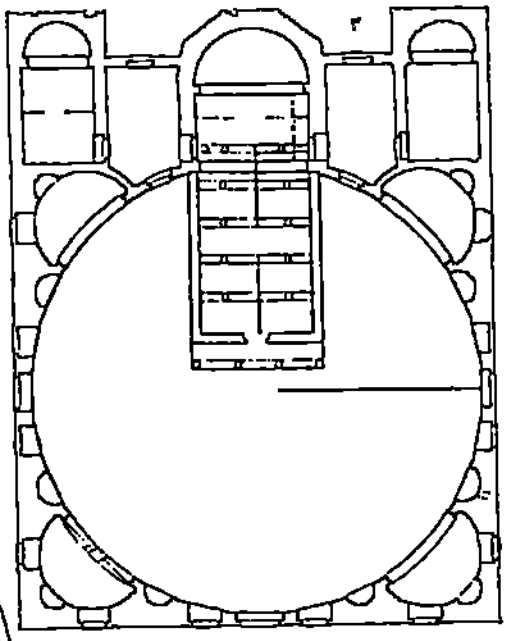

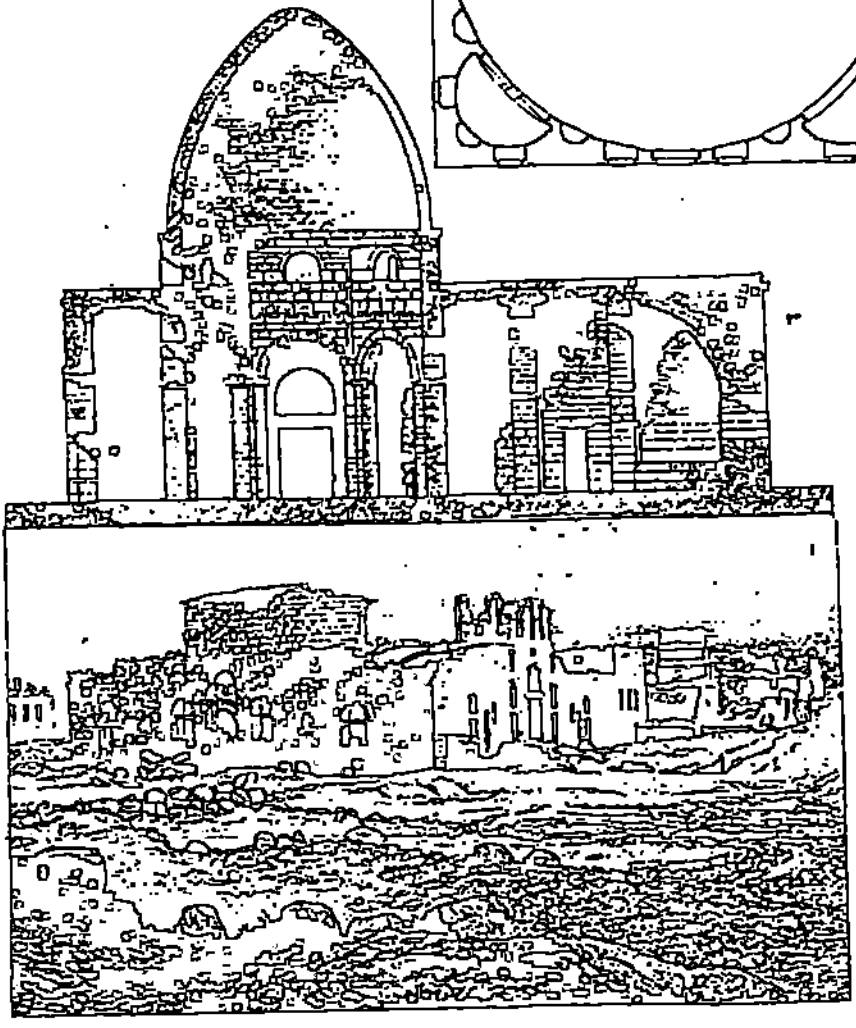

(Ἀσπέβετος) ولّاهُ ازدشير الملك نحوم العجم فلمَّا اثار الاضطهـاد على نصارى مملكته واخذ يصادرهم ويذيقهم ضروب العذابات جعلوا يرلُون هاربين من العجم الى ممالك الرومان واسباباط لا يتعرَّض لهم رغماً عن اوامر الملك فسعى المجوس به لدى ازدشير ليعاقبهُ ففرَّ هو ايضاً هارباً الى اراضي الرومـان حيث اكرم وقادتهُ اناطوليوس الحاكم وولّاهُ على القبائل العربيَّة المنتمية لرومية

وكان لاسباباط ولدٌ يُدعى طرابون مصـاب بالفالج افرغ ابوهُ في شفائه كل الوسائل دون فائدة فالتجأ اخيرًا بالهام من الله الى القديس افتيميوس فشفى الغلام ونصَّر اباه ودعاهُ بطرس وعمَّد كلّ آل بيته وتبعهم في دينهم قوم كثيرون من العرب سعى القديس افتيميوس في تلقينهم كلّ عقائد النصرانيَّة. ثمَّ اجتذب مثلهم غيرهم من قبائل العرب خطَّط لهم القديس افتيميوس حدود مدينـة صغيرة ليست بعيدة من ديرهِ وامرهم ببنائها على رسم معلوم وحفر لهم بئرًا وابتنى لهم كنيسة ودارًا لزعيمهم . ثم اتَّفق مع البطريرك يوفنـاليوس فجعل بطرس اسقفاً عليهم. واخذ كثيرون من العرب يتواردون الى مقرّهم حتَّى بلغ عـددهم عشرين الفًا ودُعيت مدينة هؤلاء المتنصرين بالملحة (Παρεμβολή) وتوالى الاساقفة عليهم حتَّى اواخر القرن السادس مع ما المَّ بهم من الضيقات والبلايا لا سيما بمعاداة قبـائل العرب الوثنيين الذين غزوهم غير مرَّة (١

والحقّ يقال انَّ هؤلاء الغُزاة كانوا على مألوف عادته شـذاذ العرب يتلصَّصون الاقفار فينهبون مخابز الرهبان واديرتهم ويسلبون مـا يجدونهُ فيها. وقد اخبر كاسيانوس في خطابه السادس (Migne P. L., XLIX, col. 643-648) انَّ هؤلاء الاشقياء هجموا على تقوع على مسافة ستة اميال من مدينة بيت لحم جنوباً فقتلوا رهباناً كانوا يعيشون في البراري بالنسك والتُّقى ثمَّ اخبر انَّ اهل تلك الناحية ابدوا لذخائرهم اكراماً عظيماً ولا سيما جموع العرب الذين هناك وبلغت رغبتهم في اقتنائها الى ان وقع بينهم قتال للفوز بتلك الاجسام المقدَّسة . وكان ذلك سنة ٣٩٥ للمسيح. وفي هذا دليل على انَّ عرب فلسطين كانوا يدينون بالنصرانيَّة (له بقيَّة)

---

١) اطلب ترجمة القديس افتيميوس لخيرة الاب جانيه الدومنيكي (F. R. Génier. O. P.: *Vie de S^t Euthyme le Grand*)